

اللغة بين التراث والحداثة .. هوية أمة

بسم الله والصلوة والسلام على رسول الله وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين وعلى أصحابه الغر الميامين وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد؛

فهل فكرتم في يوم من الأيام، ماذا لو لم تكن بيننا لغة نتحدث بها؟

هل تصورتم الحياة بدون كلام نتفاهم عبر أفالظهاء؟

كيف كنّا سنتواصل أو نتفاهم ويقضى كل منا مصالحه وأغراضه؟

هل تخيلت الحياة بدون كلام أو صوت؟

هل تخيلت الدنيا بدون تغريد الطيور أو حفيق الشجر أو هديل الحمام أو خرير الجدول وانسيابية الشلال؟

أيها القارئ الكريم: إن اللغة مكون رئيسي من مكونات المعيشة والحياة، ولها أثرها البارز في مجريات الأحداث: فالكلمة تفتح الأبواب وبالكلمة تبدأ الحروب وبالكلمة نتعاهد على السلام وبالكلمة نعيش ونحب ونتعلّم ونتفاهم، ولقد امتن الله سبحانه وتعالى على الإنسان بأن علمه البيان وجعل تعليمه هذا رحمة به وبالبشر أجمعين، قال تعالى:

﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) حَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْيَتَامَاءِ (٤)﴾، لقد جعل الله تعالى جهازنا الصوتي مظهراً من مظاهر قدرته جل شأنه، ولهذا فاللغة من دلائل ربوبية الله عز وجل، الذي جعل البشر على لغات متعددة ليتعرفوا ويخالطوا وتكون اللغة أساساً للثقافة بينهم ولتنوع الحضارات والقيم والعادات في العالم.

فإذا علمنا أن: عدد لغات العالم يزيد عن 7000 لغة ، وكلها لغات حية مازال الناس يتحدثون بها في حياتهم اليومية، وتمثل اللغة العربية أهمية كبيرة للمتحدثين بها لأنها لا تمثل اللغة التي نتعاشر بها فقط ، بل إنها تمثل اللغة التي نتعبد بها و ننادي بها النسك والعبادات، ونخشع في الصلاة ، وتحل بها السكينة في قلوبنا، و تُشترط بها حسناتنا وسيناتنا في صحائف أعمالنا، لنجاّب عليها يوم القيمة ، فليس اللّغة عند المسلم وسيلة للتواصل أو التفاهم فقط: إنها تمثل السكينة والأطمئنان والراحة، لأنها الوعاء الذي هو كلام الله عز وجل وبها نتلو القرآن ونرتل الأنذكار وبها نستمع للأشعار ونقرأ الأدب العربي الرائع الرقيق.

لقد تمثلت الحضارة الإسلامية في مكتوبات اللغة العربية، وتشهد المخطوطات بجهود العلماء العرب والمسلمين في شتى المجالات و الميادين الثقافية: من طب وهندسة وفلك وعلوم طبيعية وأداب وفنون، إن اللغة العربية هي تراث الأمة في أزهى عصور نهضتها ، ومن ثم وجوب الانفتاح على تراثها والتتقىء عن ذخائرها ونفاسها، تلك النفائس التي ذفت مطوية داخل المخطوطات ودفنت المخطوطات داخل المتاحف، وكانتها أحجار كريمة أو جواهر نفسية للمشاهدة والتباهرى المحسض، لهذا يجب علينا أن نتعامل مع المخطوطات العربية والتراث العربي على أنه علم ت Hutchinson علينا أن نفديه منه، وأن نبذل الجهود لتحقيق تراثه واستخراج الأفكار العلمية والأدبية المضمنة داخل مكتوباته ومخطوطاته ونجعلها في نطاق الدراسة والتطبيق .

لقد ظهرت الحداثة في بدايتها : على أنها انسلاخ من القديم وليس هذا من المنطق في شيء - إن المنطق يستوجب: بأن نعترف أن الحداثة هي إحدى مُنطّقات التراث، فالحداثة لها من جذور التراث ساق وغصن وورق، ولزم أن تكون الحداثة الزهرة والثمرة لهذا النبات المتكامل، فمن تنهض الحضارة العربية لسابق عهدها إلا إذا انتخذت من اللغة العربية الكريمة محوراً لازدهارها ، وأداة من أدوات عالميتها وتقدمها، وعبرأ ثقافياً ينثر أزاهير وفنون العرب في كل مكان على الأرض: نحن بحاجة لفن الدعاية والإعلام لترويج حضارتنا وثقافتنا العربية بين الناس ، وكثير من الدول جعلت العربية ضمن منظوماتها التعليمية ولغة تدرس في جامعاتها ، فلما لا نهتم بلغتنا الكريمة، لغة القرآن الكريم ولغة الحضارة العربية.

بقلم : د. وفاء شريف زكي